من التأويل إلى الهرمينوطيقا (قـراءة في المسارات)

د.تيرس هشام.
أستاذ محاضر(ب).
جامعة الجيلالي ليابس بسيدي بلعباس

يتحرّك مصطلح الهرمينوطيقا ضمن آفاق الفهم والتأويل، فهم الإنسان وتأويله، وفهم الوجود وتأويله، وبطبيعة الحال، فهم النصوص وتأويلها، إلاّ إنّ الإشكال الذي يبقى قائما هو حقيقة الفروق الموجودة بين المصطلحين، على اعتبار أنّ اللّغات الأجنبية تفرّق بوضوح بين مصطلح "interprétation" ومصطلح "Herméneutique".

ليست هذه المسألة من السّهولة في شيء، خاصة إذا أشرنا إلى الكتاب الثاني من أورغانون **أرسطو** وكذا إلى تحديد **جان غروندن** للتأويل عند المعلّم الأول، حيث لاحظنا أنّ كلمة تأويل interprétation ترجع إلى الفعل الإغريقي هرمينيا (Herméneuein) وأنّ كتاب **أرسطو**: "peri hermeneias" تُرجم إلى اللاتينية: "في التأويل" (de interpretatione) ولا يقف الأمر عند هذا، أي بعبارة أخرى إذا كانت الهرمينيا أصلا اشتقاقيا لمصطلح التأويل، فإنّ العكس صحيح أيضا، إذ ترجع جذور مصطلح الهرمينوطيقا Hermeneutics إلى الفعل اليوناني hermeneuein الذي يُترجَم عادة بالفعل يفسّر -interpretinterpretiren، ومنه الاسم hermeneia، أو التفسير interpretation" [1] فنكون أمام مصطلحين مختلفي المآل مشتركي الأصل.

من هنا تتأتّى إشكالية المسألة، فهل نحن أمام ممارسة أو مجموعة ممارسات قديمة وراهنة لا تتفاوت فيما بينها إلاّ بقدر ما تمليه الوضعيّات التاريخية وتطوّر الأفكار بغضّ النّظر عن أيّ اختلاف في المصطلحات، أم إنّنا بصدد نوعين منفصلين مختلفين تماما من الممارسات لا يجمع بينهما إلاّ ما قد يكون عادة بين علوم الإنسان المتجاورة أو ما تمليه طبيعة الاشتغال على نصوص بعينها.

قد تكون في مستويات الاستعمال الثّلاثة التي عرضتها نبيهة قارة [1] في تفحّصها حمولات مصطلح الهرمينوطيقا (المستوى الميتودولوجي والمستوى الإبستمولوجي والمستوى الفلسفي) بعض توضيحات للمسألة، بحيث يكون المستوى الأول (الميتودولوجي) النواة الصلبة التي تجمع حولها المصطلحين، أو إن شئنا فهو المستوى الذي لا تعدو فيه الهرمينوطيقا أن تكون تأويلا أي طاقة فعّالة يُتوجّه بها نحو النّصوص كيفما كانت من أجل الوصول إلى مستويات دلاليّة غير تلك التي يسعف بها الظاهر الحرفي.

أمّا المستوى الثاني (الإبستمولوجي) فيمكن أن نعدّه بداية مفارقة الهرمينوطيقا للتأويل، حيث تكون الأولى بمثابة الآلة الضّابطة للممارسات التأويلية التي عادة ما تتدثّر برداء الذاتية المفرطة، حيث "أصبحت الهرمينوطيقا تعني بصفة عامة نظرية التأويل: تكوين الإجراءات والمبادئ المستخدمة في الوصول إلى معاني النّصوص المكتوبة بما في ذلك النصوص القانونية والتعبيرية والأدبية والدينية" [1] فهي إذّاك مواكبة تقنينية لممارسة تأويلية متوثّبة أبدا، فهي إذن تطوّر لاحق على التأويل، حيث يرى **غروندن** أنّ هدف "الهرمينوطيقا الكلاسيكيّة في الواقع اقتراح قواعد من أجل مواجهة الإعتباطية والذاتية في الإختصاصات التي لها علاقة بالتأويل" [1]. هذه القواعديّة التي اضطلع بها المستوى الثاني هي ما يمكن عدّه بداية للمستوى الثالث.

بهذا المستوى الثالث (الفلسفي) نكون أمام المنعرج الخطير الذي شهده العقل التأويلي في الفكر الغربي، إذ تحوّل هذا العقل من مجرّد ممارسات نصية أو تعليقات وحواش غالبا ما كانت توجه إلى النّصوص المقدسة، تحوّل إلى منظومة تفكير فلسفية "ذلك أنّ التّأويل - الذي كان ملحقا باللاهوت وفقه اللغة- عرف تطوّرا منهجيا كان قاعدة أساسية لمجمل التطورات التي وقعت في مجال العلوم الإنسانية" [1]، إذ لم تعد بؤرة الاهتمام مجرّد توصيف تطبيقات نصية أو حتى وضع ترسانة قواعدية حول التأويل وشروطه والمؤوّل وشروطه للحدّ من غلوائه، وإنما أضحى الأمر تفكيرا فلسفيا حول ظاهرة الفهم عموما من حيث إنّ التّأويل من أبرز شروطها، ولا يقتصر هذا الفهم على التعابير النصية فقط وإنما يتعدّاه إلى كلّ أوجه التواصل البشري، مما يجعل الهرمينوطيقيا بهذا المستوى الثالث (الفلسفي) منظومة فلسفية لا يكون التأويل إلا عنصرا - وإن محوريا- بين عناصر كثيرة أخرى تؤطّرها تلك المنظومة.

هذا التّصور هو الذي يطغى غالبا على النظر إلى المصطلحين والتفرقة بينهما، يذهب إلى ذلك مثلا الباحث **حسن بن حسن** في قوله: ".....وهذا هو الفرق بين الكلمتين الفرنسيتين herméneutique،interprétation إذ تعني الأولى منهما الجهد العقلي الذي نقوم به في إرجاع معنى ظاهر ومجازي إلى معنى باطن أو حقيقي، في حين أنّ الثانية ذات حمولة فلسفية بما أنها تهدف إلى الإمساك بالكائن من خلال تأويل تعبيرات جهده من أجل الوجود وهذا يعني أنّ الغاية أنطولوجية في حين أنّ المسلك إليها إبستيمولوجي" [1]. ويبدو أنّ هذا الرّأي كان من قبلُ رأي الفيلسوف الفرنسي **بول ريكور** حين عنون به واحدا من أشهر مؤلّفاته [1] فاصلا بين المصطلحين.

ومع ذلك، تبقى نقاط ظلّ كثيرة تحوم حول "التّاريخ الاستعمالي" للمصطلحين، إذ كثيرا ما يتم الخلط بينهما، ونحن نعرف أنّه بالرّغم من أنّ القرن السّابع عشر (تحديدا العام **1654**) شهد ظهور مصطلح الهرمينوطيقا إلى الاستعمال على يد **داتهاور** وبالرّغم أيضا مما أشرنا إليه من تلك

التفرقة التي تجعل التأويل للممارسة النصية، وتخصّ الهرمينوطيقا بتلك المنظومة الفلسفية المتكاملة حول ظاهرة الفهم وإشكالاتها، إلا أنّ الغموض لا يلبث يظل جاثما على استعمال المصطلحين.

يطغى هذا الغموض عندما نجد منظّرى الهرمينوطيقا المعاصرين مثلا يؤصّلون لها (للهرمينوطيقا) بالعودة إلى أعلام لم تشهد فتراتهم استعمالا صريحا لمصطلح الهرمينوطيقا، هذا إن لم تكن ممارساتهم مقتصرة على التأويل وما تعلّق به من مشكلات نصية، وهكذا نجد واحدا من أبرز أولئك المنظرين وهو **جان غروندن** يعتبر "أنه مع **أوغسطين Augustin (354- 430)**، نقترب لأوّل مرّة، في رحلة البحث عن الهرمينوطيقا، من فيلسوف كان له كبير الأثر في من جاء بعده من أقطاب الهرمينوطيقا المعاصرة؛ فهو بقدر ما نال اهتمام فيلسوف الكينونة **هيدغر**، شغل، بالقدر نفسه، فكر فيلسوف هيدلبرغ **غادامير**" [1]، فضلا عن أنّه (**أوغسطين**) يوصف بصاحب المؤلّف (عن كتابه "العقيدة المسيحية" De Doctrina christiana الأكثر تأثيرا في التاريخ الهرمينوطيقي كلّه على الإطلاق l'ouvrage le plus influent de toute l'histoire de l'herméneutique [1].

بل إنّ الأمر لا يقتصر على القدّيس **أوغسطين** فقط، بل يتعدّاه إلى فترة أخرى هي فترة الإصلاح الكنسي مع رائده **مارتن لوثر martin luther (1483 - 1546)** "الذي يُعزى إليه فضل اكتشاف أو تجديد القضية الهرمينوطيقية، وإخراجها بعيدا عن فضاء الكنيسة وقواعدها الملزمة لكل معتقد مؤمن، واحتكارها للفهم/الحقيقة، ومن ثمّ المعيار التأويلي" [1]، ومن المعلوم أنّ من أهم رهانات الإصلاح الكنسي آنئذ تحطيم السّلطة الكنسية المحتكرة لفهم النصوص المقدّسة وتأويلها، وهذا يعني من بين ما يعنيه أنّ رواد الإصلاح - ومنهم **لوثر**- قد أطلقوا نقاشات حادّة حول ظاهرة الفهم وبأنّ الأمر لم يقتصر إذّاك على قراءات تمرّدية للنصوص المقدسة من لدنهم يحاولون بها اختراق حصار الكنيسة.

هكذا نجد أنّ الوقوف على الفروقات الدّقيقة بني مصطلحي "التأويل" و"الهرمينوطيقا" لا يتحقّق فقط بتلك النظرة الزمنية البسيطة المسطّحة، التي يمكن أن توهمنا بأنّ ممارسات تأويلية نصية ساذجة كانت تُمارس تحت تسمية "التأويل"، ثم ظهر فجأة مصطلح "الهرمينوطيقا" (القرن السابع عشر) حاملا معه تلك الحمولة الفلسفية المضطلعة بظاهرة الفهم، فهم النّص والإنسان والوجود.

من الصّحيح أنّ تاريخ استعمال المصطلحين قد عرف تأرجحا بينهما، حيث كانت الغلبة للتأويل في غابر العهود القديمة، مهما كان عمق الدّراسات التي عرفتها تلك العهود ومدى قربها من الدراسات المعاصرة (كما أشرنا مثلا إلى **أوغسطين**)، ثم رجحت الكفّة للهرمينوطيقيا التي ظهرت مصطلحا في القرن السابع عشر ومجّدها القرن الثامن عشر [1]؛ إلاّ أنّ طبيعة الطّرح التّأويلي (مهما

كان المصطلح الذي يتخذه) جعلت دائما مسألة الحدّ بين المصطلحين أقرب إلى الجهد التأويلي الذي لا يمكنه- مهما بلغ - ادّعاء القول بيقين، فصرنا كأنّنا أمام تخوم بين المصطلحين لا أمام حدود.

أمّا إذا عدنا إلى الاستعمال العربي لمصطلح الهرمينوطيقا فإنّنا لا نلفيه أحسن حالا، فممّا لا يخفى على ناظر أنّ من أشدّ ابتلاءات الثقافة العربية المعاصرة والنّقدية منها خصوصا ما دُرج على تسميته بأزمة المصطلح النقدي، ولعلّنا لم نجانب الصّواب كثيرا في توصيفها بالابتلاء، إذ عدا حالات قد لا تكون بالكثيرة يكون فيها نقل المصطلح الوافد بكلّ حمولاته أمرا لا يخلو من عنت ومشقة توجب الاجتهاد ومن ثم الاختلاف، فإنّ الشّواهد من الكثرة بمكان على حالات تصعب على الحصر يكون فيها الاختلاف من أجل الاختلاف والاختلاف مخالفة والاختلاف تعصّبا والاختلاف تعاليا هو سيّد الموقف.

ولعلّ الأمثلة على هذا الدّاء المستحكم كثيرة، مما يغني المومئ إليها عن التورّط في الإشارة إلى حالات مخصوصة لا تخفى على فطنة القارئ المتتبع ونباهته، وهو الدّاء الذي لايعدو أن يكون إحدى الواجهات الصّادقة لثقافة بأكملها بما يتفاعل فيها من أدواء [1]، وإلاّ كيف نفسّر أنّ مصطلحا ليس من المحال الاتّفاق على مقابل له وبعد أن تجاوز عقود التلقي الأولى وما يرافقها من دهشة وتردّد واجتهاد واختلاف، كيف نفسّر أنّه بعد كلّ هذا وما إن نقترب من الاستقرار على صيغة ما حتى يخرج صوت من هنا أو صوت من هناك مبشّرا بأنّ الكلّ على خطأ صرفي أو ما شابه وأنّ الصّواب فيما يقترح وفيما يقول.

وعودًا إلى مصطلح الهرمينوطيقا فإنّه لم يكن بأوفر حظا، ولعل للتعامل العربي مع الوافد هذه المرة ما يبّرره، إذ انتقل الاختلاف الغربي حول مصطلحي التأويل والهرمينوطيقا إلى السّاحة العربية لينضاف إلى الاختلاف القديم الذي ما فتأ جاثما حول مصطلحي التفسير والتأويل، وهكذا قيل في مقابلة مصطلح "الهرمينوطيقا" ما شاء الله أن يُقال.

على أنّه تفاديا لخلط الحمولة المعرفية الغربية للهرمينوطيقا وإسقاطها قسرا على مصطلحات كانت متداولة في تراثنا كالتأويل والتفسير مثلا، فإننا نفضّل مصطلح "الهرمينوطيقا" "بفضل الانتشار والشّيوع وقربه من دلالة المصطلح الأصل" [1] ونعدل عن صيغ أخرى متداولة لعلّ أهمّها "التأويلية" لالتباسها بجذر التأويل من جهة، ولصعوبة إخضاعها لكل الحالات الاشتقاقية من جهة أخرى، فعبارة مثل "herméneutiquel'étude" تُترجم وفق هذا التصور بعبارة: الدّراسة التأويلية، ولن يكون إذّاك فرق بينها وبين ترجمة عبارة: Interprétativel'étude بعبارة: الدّراسة التأويلية، الأمر الذي لن يدفعنا إليه هاجس تأصيل أو حبّ اختلاف.

بالجملة، فإنّ العقل الهرمينوطيقي الغربي المعتمد على تراث تأويلي ضخم يشايعه حينا ويخالفه حينا آخر، إنّ هذا العقل ومنذ اقتران الهرمينوطيقا بالممارسة الفلسفية وابتعادها المتدرّج عن التطبيقات البسيطة والبريئة عرف تطوّرا لا تخطئه عين، وهو التّطور الذي يجعل من الهرمينوطيقا اليوم ميدانا معرفيّا مرموقا لا يجفّ فيه قلم، ويتداول عليه منظّرون كثر، لا سيما الرواد الأكثر تأثيرا في هذا المجال، من **شليرماخر** وحتى **ريكور** مرورا **بديلتاي وهيدجر وغادامير**.

الإحالات:

[1] صفاء عبد السلام علي جعفر، هيرمينوطيقا (تفسير) الأصل في العمل الفني (دراسة في الأنطولوجيا المعاصرة)، منشأة المعارف، مصر، د.ط، **2000**، ص **23**.

[1] ينظر: نيهة قارة، الفلسفة والتّأويل، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، لبنان، ط**1**، **1998**، ص **05**.

[1] ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط**2**، **2000**، ص **48**.

[1] Jean grondin, l'hermeneutique, puf, France ,1 ed,2006, p 04

[1] عمر مهيبل، من النسق إلى الذات (قراءات في الفكر الغربي المعاصر)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط**1**، **2001**، ص **141**.

[1] حسن بن حسن، النظرية التأويلية عند بول ريكور، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط**2**، **2003**، ص **15**.

[1] بول ريكور، صراع التأويلات (دراسات هيرمينوطيقية)، تر: منذر عياشي، مراجعة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط**1**، **2005**.

[1] Jean grondin, l'universalité de l'herméneutique, paris, PUF, 1993, pp 28,29

نقلا عن: عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة (نحو مشروع عقل تأويلي)، منشورات الاختلاف (الجزائر)/الدّار العربية للعلوم (لبنان)، ط**1**، **2008**، ص ص **168**، **169**.

[1] ينظر: المرجع السابق، ص **171**.

[1] المرجع نفسه، ص **171**.

[1] ينظر: بول ريكور، من النص إلى الفعل (أبحاث التّأويل)، تر: محمّد برادة وحسان بورقية، مكتبة دار الأمان، المغرب، ط**1**، **2004**، ص **40**.

[1] للاستزادة حول أزمة المصطلح عموما والهرمينوطيقا خصوصا، ينظر: عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة، م م س، من ص **82** إلى ص **96**.

[1] المرجع السابق، ص **95**.